الفصل السادس

الفصل السادس

فى أولوية العمل الخيرى

لقد من الله سبحانه وتعالى على الأمة الإسلامية بأن جعل شريعتها خاتمة شـ.رائع الله إلى الناس، كما جعلها الشريعة المحققة لعمران الدنيا وسعادة الآخرة.. فكان العمل الـ.صالح، فى كل ميادين العمران الإنسانى هو الأمانة التى حملها الإنسان عندما استخلفه الله فـ.ى هـ.ذه الحياة.

ففى القرآن الكريم يقترن العمل بالإيمان، بل إن العمل الصالح هو الترجمان الحقيقـ.ى عن صحيح الإيمان.. وإذا كان الله سبحانه وتعالى، قد جعل صالح الأعمال الفريضة الإلهيـ.ة على سائر الرسل عبر تاريخ الرسالات ﴿ **يا أَيها الرسلُ كُلُوا مِن الطَّيباتِ واعملُـ.وا صـ.الِحاً إِنِّى بِما تَعملُون علِيم** ﴾ [1].. فلقد دعا أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى المسارعة والمسابقة والاستباق على طريق الخيرات ﴿ **فَاستَبِقُوا الْخَيراتِ إِلَى اللَّهِ مرجِعكُم جمِيعاً فَينَبئُكُم بِما كُنتُم فِيهِ تَختَلِفُون** ﴾ [2].

وإذا كان عصرنا يشهد – بحمد الله – يقظة إسلامية كبرى، تعود فيها جمـ.وع الأمـ.ة إلى الالتزام بحدود الحلال والحرام والدينى، وتسعى إلى سيادة كامل الإسلام على كامل الحياة الإسلامية، فإن العمل الخيرى، الذى يتسابق الكثيرون على طريقه – مرضاة الله، وطلبا لثوابه – هو واحد من أبرز وأعظم مظاهر اليقظة الإسلامية المعاصـ.رة ﴿ **وفِـ.ى ذَلِـ.ك فَلْيتَنَـ.افَس الْمتَنَافِسون** ﴾ [3] حتى لقد برزت التساؤلات، لا عن قلة العمل الخيرى والتفرقة، وغنما عـ.ن ترتيب أولوياته حتى تتناسب مع ترتيب وأولويات احتياجات المسلمين.. إذ لا يكفـ.ى اختيـ.ار الصالح من الأعمال على الطالح منها، وإنما تجب مراعاة مراتب الأعمال الصالحة وترتيـ.ب الأولويات بينها، حتى لا تكون هناك مشروعات كثيرة لا حاجة إلى كثرتهـ.ا، وافتقـ.ار إلـ.ى إنجازات فى ميادين نحن فقراء فيها..

وإذا كان الله، سبحانه وتعالى، قد استخلف الإنسان لعمارة الأرض واستعمارها ﴿ **هو أَنشَأَكُم مِن الأَرضِ واستَعمركُم فِيها** ﴾ [4] فلقد كرم سبحانه الإنـ.سان وجعلـ.ه محـ.ور هـ.ذا

---

(1) سورة المؤمنون: الآية ٥١.

(2) سورة المائدة : الآية ٤٨.

(3) سورة المطففين : الآية ٢٦

(4) سورة هود : الآية ٦١.

العمران، بل وسخر له ما فى السموات والأرض ﴿ **ولَقَد كَرمنَا بنِى آدم وحملْنَاهم فِى الْبرِ والْبحرِ ورزقْنَاهم مِن الطَّيباتِ وفَضلْنَاهم علَى كَثِيرٍ ممن خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ (١) ﴿ **أَلَم تَروا أَن اللَّه سخَّر لَكُم ما فِى السمواتِ وما فِى الأَرضِ وأَسبغَ علَيكُم نِعمه ظَاهِرةً وباطِنَةً** ﴾ (٢).

فالإنسان هو خليفة الله سبحانه وتعالى فى الأرض، وإلى سعادته وتيسير حياته يجب أن تتوجه جهود العمل الخيرى وإمكانات العطاء والإحسان..

هنا يبرز التساؤل عن منهاج الإسلام فى ترتيب الأوليات فى هذا الميدان.. ولعل مما زاد فى إلحاح هذا التساؤل هو توجه جماهير غفيرة من المسلمين – وخاصة فى السنوات الأخيرة – إلى بناء المساجد، أكثر من غيرها وقبل غيرها من مشاريع الخير وميادين الإنفاق.. الأمر الذى زاد من إلحاح التساؤل عن منهاج الإسلام فى ترتيب الصالح من الأعمال..

****

* إن الإيمان خير كله، بل هو المدخل إلى الدين، وبدون لا تقبل الأعمال حتى ولو كانت من الصالحات.. ومع ذلك، فإن الإيمان شعب تتفاوت فى المراتب والأهمية، ومن ثم فى الأولويات.. ونحن نتعلم ذلك من حديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، أرفعها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان" (٣).

* والأمر الذى لاشك فيه هو أن المساجد هى بيوت الله فى الأرض ﴿**وأَن الْمساجِد لِلَّه فَلا تَدعوا مع اللَّه أَحدا**﴾ (٤).. وهى عنوان إسلام الأمة، من مآذنها يرتفع العظيم لله والشهادة بالإيمان والإسلام آناء الليل وأطراف النهار، حتى لكأنها "أجهزة الإرسال" الإسلامى تبث إيمان الأمن من الأرض إلى السماء..

والأمر الذى لاشك فيه كذلك، هو أن فضل المساجد إنما يقاس بمدى تحقيقها لمقاصد الاستخلاف الإلهى للإنسان فى عمران الدنيا صالحا يحقق للإنسان السعادة والنعيم فى يوم الدين..

---

(1) سورة الإسراء : الآية ٧٠.

(2) سورة لقمان : الآية ٢٠

(3) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة.

(4) سورة الجن : الآية ١٨

ولقد من الله سبحانه وتعالى على أمة محمد ﷺ – ضمن ما من عليها من خصوصيات – عندما لم يجعل بناء المساجد شرطاً لا يعبد الله فى سواها، فاختص رسوله وأمته بأن جعل لهم الأرض كلها مسجدا طهورا.. فحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العطايا الإلهية الخمسة ألتى أعطيها، ولم يعطهن أحد قبله.. ومنها: "وجعلت لى الأرض مسجدا ظهورا" (١)

* بل إن الكعبة التى هى المحور والمقصد الذى تهوى إليه أفئدة المؤمنين على مر الزمان وعبر البقاع، وتتوجه إليها القلوب والأبصار آناء الليل وأطراف النهار، تحدث رسول الله، ﷺ، عن أن حرية الإنسان عند الله أعظم من حرمتها.. فعن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، قال: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول: " ما أطيبك وأطيب ريحك.. ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذى نفس محمد بيده! لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، وما له ودمه، وإن نظن به إلا خيرا"(٢).

* بل وحتى البيت الحرام، الذى هو أول بيت وضع للناس فى الأرض، فكان أول مكان عبد الإنسان فيه الله – تحدث القرآن الكريم عن فضل الجهاد على عمارته وسقاية الحجيج فيه ﴿**أَجعلْتُم سِقَايةَ الْحاج وعِمارةَ الْمسجِدِ الْحرامِ كَمن آمن بِاللَّهِ والْيومِ الآخرِ وجاهد فِى سبِيلِ اللَّهِ لا يستَوون عِنْد اللَّهِ واللَّه لا يهدِى الْقَوم الظَّالمِين (١٩) الَّذِين آمنُوا وهاجروا وجاهدوا فِى سبِيلِ اللَّهِ بِأَموالِهِم وأَنفُسِهِم أَعظَم درجةً عِنْد اللَّهِ وأُولَئِك هم الْفَائِزون (٢٠) يبشِّرهم ربهم بِرحمةٍ مِنْه ورِضوانٍ وجنَّاتٍ لَهم فِيها نَعِيم مقِيم**﴾ (٣) فمن جمع إلى الإيمان بالله واليوم الآخر الجهاد فى سبيله بالمال والنفس، أعظم درجة عند الله من الذين جمعوا إلى الإيمان سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام.. (٤)

إنها جميعا أعمال صالحات، لكن مراتبها، ومن ثم درجاتها ومقادير الثواب عليها، تتفاوت بمكانتها فى سلم الأولويات اللازمة لتحقيق عزة الأمة وإنجاز العمران الإسلامى الذى استخلف الله فيه والإنسان.. ولقد حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحب الأعمال إلى الله، فقال: "أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل: سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضى عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعا. ولأن أمشى مع أخى المسلم فى حاجة أحب إلى من أن أعتكف فى المسجد شهرا".

---

(1) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وأبو داود والدارمى وأبن ماجة والإمام أحمد.

(2) رواه ابن ماجة.

(3) سورة لتوبة : الآيتان ١٩، ٢٠.

(4) القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) جـ ٨ ص ٩١ – ٩٣ طبعة دار الكتب المصرية.

فالله سبحانه وتعالى يحب كل المؤمنين، لكن أحبهم إليه هو من يـ.ضع العطـ.اء – أى عطاء – فى الأنفع للناس.. والله يحب كل الأعمال الصالحة، لكن أحبها إليه – وأكثرها ثوابـ.ا عنده – ما أسهمت فى إدخال السرور على الناس، وكشف الكربات عنه، وإزالـ.ة الأضـ.رار، وقضاء الحاجات، وتيسير سبل الحياة الكربات عنه، وإزالة الأَضـ.رار، وقـ.ضاء الحاجـ.ات، وتيسير سبل الحياة الكريمة لعامة الناس.. "فالخلق عيال الله، وأحب الخلق إلى الله من أحـ.سن إلى عياله" [1].

فبقدر ما يكون توظيف العمل الخيرى فى تيسير حاجات الناس.. وبقدر ما يكون مـ.ن عموم ثمراته لأكبر عدد من الناس وبقدر ما تراعى فى ذلك الأولويات – الأهم فالمهم، فالأقل أهمية – بقدر ما يكون أحب إلى الله، وأجذل فى الثواب عند الله..

****

ذلك أن الإسلام قد تميز عن غيره بأنه "دين" لا يقوم بغير "دنيا"، وشريعة لا تكتمل إلا فى مجتمع ووطن ونظام وعمران.. فالكثير من فرائضه الكفائية والاجتماعية لا تقام إذا نحـ.ن اكتفينا بالمساجد المحاريب.. فالعلم بالإسلام يقتـ.ضى ويـ.ستوجب تحـ.صيل العلـ.م المـ.دنى الشرعي.. وفريضة على الأمة الإسلامية إقامة مؤسسات هذا العلم، التى بدونها لا تكتمل إقامة الدين.. والمسلمون الأوائل أقاموا مؤسسات العلم – دار الأرقم بن أبى الأرقم – قبل المساجد، لأن العبادة التى تعمر بها المساجد متوقفة على مؤسسات المعارف والعلم والتعليم.. ومجـ.الس العلم، فى الإسلام مقدمة ومفضلة على مجالس الذكر وشعائر العبادات..

وإذا كنا مكلفين بإقامة الدين ﴿ **أَقِيموا الدين ولا تَتَفَرقُوا فِيهِ** ﴾ [2] فإن إقامـ.ة كامـ.ل الإسلام لا تتأتى إلا فى مجتمع مستكمل لشرائط العمران، المادية منها والروحية والأدبية. بل إن إقامة الشعائر والمناسك، والعبادات على النمو الأمثل، وفى حضور قلبى يجعلها خالـ.صة لله، لا يتأتى إلا إذا انتظمت شئون الدنيا، وتحققت شروط الأمن المادى والمعنـ.وى للعابـ.دين العاكفين الراكعين الساجدين، وذلك حتى يتمكنوا من إفراد المعبود بالعبادة، واستخلاص القلوب العابدة من المعوقات الدينية التى تحول دون الحضور فى العبادات...

---

(1) رواه ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج، والطبرانى عن ابن عمر وحسنه فى صحيح الجامع الصغير ١٧٦.

(2) سورة الشورى الآية : ١٣

إن صلاح الجائع لا تصح.. وصلاة الخائف لا يتحقق فيها الحـ.ضور – فهـ.ى "أداء" للشكل، يفتقر إلى "الإقامة" التى هى شرط العبادات – ومن المستحيل أن يمتلئ قلـ.ب المعـ.دة "الخاوية بالخشية لله"، أو أن تكتسى الأجساد العارية بلباس التقوى، كما أراد الله.

ولقد أدرك أئمة الإسلام وعلماء الأمة هذه الحقائق فى منهاج الإسلام، الـ.ذى يرتـ.ب الأولويات فى عمل الخيرات. فوجدنا حجـ.ة الإسـ.لام أبـ.و حامـ.د الغزالـ.ى (٤٥٠هـ. . – ٥٠٥هـ./١٠٨٥م – ١١١م) يقطع بأن نظام الدين وانتظامه مترتب على نظام الدنيا وانتظـ.ام شئونها وليس العكس.. وفى ذلك كتب يقول: " إن نظام الدين لا يصلح إلا بنظام الدنيا، فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة القدر الحاجات، من: الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأمن. فلا يذ.تظم الـ.دين إلا بتحقيـ.ق هـ.ذه المهمـ.ات الضرورية. إن نظام الدنيا شرط لنظام الدين [1].. فالعمل لتوفير ما تنتظم به شـ.ئون الـ.دنيا، ويرتفع به ضيق الحياة وحرجها، مقدم على غيره، لأنه هو المقدمة والشرط لإقامة الدين، بما فيه من معارف وعبادات..

ولذلك، كان الغزالى يعيب على أهل زمانه وينكر عليهم اهتمامه بـ.العلوم الـ.شرعية، وإهمالهم العلوم العملية والمدنية – فالعمران الدنيوى– المادى منه والأدبـ.ى – هـ.و الميـ.سر لإقامة الدين.. بل إن عبادتنا لله سبحانه وتعالى إنما هى شكر له على النعم التى أنعم علينا بها فى هذا العمران!..

كذلك، وجدنا العابد الزاهد المجاهد عبد الله بن المبارك (١١٨هـ. – ١٨١هـ./ ٧٣٦م – ٧٩٧م) يفضل الجهاد بالسنان فى ميادين القتال على التمسك والعبادة فى الحرمين الشريفين ويعلى من مقام دماء المجاهدين فى ساحات الوغى على دمـ.وع العابـ.دين والعـ.اكفين فـ.ى المحاريب.. ويصوغ ذلك شعرا يقول فيه:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب

ولقد صاغ العقل المسلم – فى علم أصول الفقه – هذا المنهاج الإسلامى نظامـ.ا فـ.ى ترتيب أولويات الأعمال، وفق ما تحققه هذه الأعمال فى البناء العمرانى للمجتمع الإسلامى..

فمقاصد الشريعة لم تقف عند حفظ الدين.. وإنما كان حفظ الدين واحدا من مقاصـ.دها الخمسة: حفظ الدين.. والنفس.. والعقل.. والنسل.. والمال..

---

(1) الاقتصاد وفى الاعتقاد ص ١٣٥ طبعة صبيح بدون تاريخ.

وفى تحقيق العمران الإسلامى، هناك ترتيب لأولويات الأعمال، بحسب أولويات الاحتياجات.. فهناك الضرورات، التى لا تستقيم الحياة بدونها، لأن فقدها يخل بمصالح الدنيا والدين.. ولذلك فالأعمال اللازمة لتحقيق هذه الضرورات مقدمة على غيرها من الأعمال.

وبعد الضرورات تأتى الحاجيات، والتى يؤدى وجودها إلى رفع الضيق والحرج والمشقة عن حياة الناس.. والعمل لتوفير الحاجيات يلى فى الترتيب العمل لتوفير الضرورات..

وبعد الحاجيات، تأتى التحسينات، التى توفر الكماليات ومحاسن العادات [1].

فمقاصد الشريعة متعددة، والعمل لتحقيقها محكوم بمنهاج فى الأولويات وترتيب الأعمال..

بل إننا إذا نظرنا إلى حفظ الدين، كمقصد من مقاصد الشريعة، وجدنا لا يتحقق إلا إذا تم حفظ النفس وحفظ العقل، ذلك أن الإنسان العاقل هو الذى يقيم الدين، وبدونه – أى بدون حفظ النفس.. بتوفير احتياجاتها المادية والمعنوية.. وحفظ العقل.. بتوفير احتياجاته العملية والثقافية – لا يتأتى حفظ الدين، فالنفس العاقلة هى القائمة بتكاليف حفظ الدين.

فكما تعددت مقاصد الشرعية الإسلامية، كذلك تعددت وتفاوتت المراتب فى الأعمال المحققة لهذه المقاصد المتعددة..

ففى المقدمة، تأتى الأعمال التى لابد منها لتحقيق الضروريات اللازمة لإقامة حياة الإنسان... والتى بدونها لا تقول مصالح الدين والدنيا.. فتنعدم مصالح الدنيا بفساد المصالح العامة للناس، ويفوت نعيم الآخرة، ويحل الخسران المبين.

وبعد الضروريات تأتى الأعمال المحققة للحاجيات، أى التى ترفع الحرج والمشقة عن حياة الإنسان.

وبعد الحاجيات تأتى الأعمال المحققة للتحسينات، أى الكماليات التى تزين أمور المعاش، وترفه حياة الإنسان، وتزيد من مكارم الأخلاق.

****

على هذا النحو أقام الإسلام نظاما كاملاً ومتسقًا فى أولويات الأعمال...

بدءا من ترتيب شعب الإيمان.. وانتهاء بمراتب الأعمال المحققة لنظام الحضارة والعمران.. ومرورا بتقديم حرمة الإنسان المؤمن على حرمة الكعبة.. وأولوية الجهاد –

---

(1) الشاطبى (الموافقات)ج ٢ ص ٤ – ٦ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد طبعة صبيح القاهرة.

بميادينه المختلفة – على سقاية الحجيج، وعمارة المسجد الحرام.. وأولوية نظام وانتظام العمران الدنيوي، لأنه الأساس لنظام وانتظام الدين.

وإذا كانت الأرض كلها قد جعلها الله سبحانه وتعالى لأمة محمد ﷺ مسجدا وطهورا. فإن على العقل المسلم والضمير المؤمن والقلوب الساعية إلا الاستباق على طريق العمل الخيري، أن تنظر إلى الضرورات الاجتماعية للإنسان المسلم المعاصر، وفق المنهاج الإسلامى فى ترتيب الأولويات..

فحيثما يكون هناك مسجد يسع صلاة الجماعة والجمعة فى قرية من القرى أو حى من الأحياء، فإن الجهود والأموال والإمكانات، وكل مصادر الأعمال الخيرية يجب أن تصرف إلى تحقيق وتحصيل وإقامة الأولى فالأولى من العمال والمشروعات التى تيسر الحياة الكريمة للناس، بإقامة ما لابد منه لحفظ الصحة وتوفير الرزق، وتحصيل العلم، ونشر الوعى الإسلامى الذى يصحح تصورات المسلم عن دينه ودنياه..

وذلك أن ترتيب الأولويات هو منهاج إسلامى أصيل، فى ديننا الحنيف، الذى لا سبيل إلى إقامته إلا بانتظام الدنيا التى تقيم فيها هذا الدين.